قراءة في الحركة الثقافية والفكرية بالجزائر
في عهد بني زيان

أ. حساين عبد الكريم

جامعة سيدي بلعباس ــ الجزائر

يعتبر هذا المقال قراءة جديدة للحركة العلمية بتلمسان الزيانية حيث سنوضح فيه العوامل التي ساهمت في ازدهار الحركة العلمية بحاضرة تلمسان ثم أهم العلماء الذين كان لهم دور بارز في نشر العلوم مع الإشارة إلى المجلات التي شملتها الحركة العلمية.

لقد ساهمت عوامل عديدة في ازدهار الحركة الفكرية منها ما أبداه سلاطين بني زيان من تشجيعهم للعلماء والمفكرين والمنافسة التي كانت قائمة بين عواصم المغرب الإسلامي الأربع كتلمسان، وتونس وفاس وغرناطة وكذا عناية سلاطين بني زيان بإنشاء المؤسسات العلمية وجلب أكبر العلماء وأشهرهم للتدريس أضف إلى ذلك حركة الانتقال التي كانت متاحة بين العواصم الإسلامية والتي غلب عليها طابع البعثات والرحلات العلمية والتي ساهمت في إذكاء روح النشاط الثقافي.كما شملت الحركة العلمية مجالات مختلفة منها العلوم العقلية والعلوم الدينية والعلوم العربية.

Résume

Le présent article constitue une nouvelle lecture sur la vie scientifique à Tlemcen pendant l'époque des zianides.

Bien qu'il ya plusieurs facteurs qui ont attribué dans cette évolution scientifique, Parmi eux le rôle des rois de Tlemcen qui ont encouragé la science, le savoir, et la concurrence Scientifique entre les capitaux du Maghreb islamique comme Tlemcen, fez , et grenade. et en plus les voyages scientifiques qui ont poussé l'animation scientifique.

لقد دخل المغرب الأوسط بتأسيس الدولة الزيانية[1] عهدا حافلا بالأمجاد في المجالات الفكرية. وقد ساهمت عوامل عديدة في ازدهار الحركة الفكرية منها ما أبداه سلاطين بني زيان من تشجيعهم للعلماء والمفكرين[2]، والمنافسة التي كانت قائمة بين عواصم المغرب الإسلامي الأربع كتلمسان، وتونس وفاس وغرناطة[3].وكذا عناية سلاطين بني زيان بإنشاء المؤسسات العلمية وجلب أكبر العلماء وأشهرهم للتدريس[4]، أضف إلى ذلك حركة الانتقال التي كانت متاحة بين

العواصم الإسلامية والتي غلب عليها طابع البعثات والرحلات العلمية والتي ساهمت في إذكاء روح النشاط الثقافي. هذا دون أن ننسى دور حركة هجرة علماء الأندلس في تطور الحركة الفكرية[5].

وما أن أطل القرن الثامن الهجري حتى بدأت تلك البذور تنبت أزهارا يانعة، فنشأ جيل من العلماء برزوا في مختلف العلوم كالعلوم الدينية، والعلوم العربية، والعلوم الإنسانية، والعلوم الرياضية والطبيعية، وهي تشهد على مدى التطور الثقافي والفكري الذي بلغته الدولة الزيانية ومنها:

1- العلوم الدينية:

اهتم الزيانيون بعلوم الدين اهتماما بارزا فقد لقيت علوم القرآن والسنة من تفسير وقراءات، وحديث وفقه وتصوف اهتمام الدولة، وأسس الزيانيون لهذا الغرض المدارس، وبنوا المساجد والزوايا التي كانت مجالا خصبا لازدهار هذه العلوم[6] وقد اتجهت الحياة الدينية إلى دراسة الأحاديث[7] ويبدو أن ذلك راجع إلى نشأة دولتهم التي قامت على مبدأ السنة واهتمامها الكبير بأصول المذهب المالكي وفروعه. فمن الذين اشتغلوا بتفسير الحديث أبو إسحاق إبراهيم التنسي (ت 680 هـ) تربع على عرش الحديث. استقدمه يغمراسن بن زيان إلى تلمسان لتدريس العلوم الدينية بعد استيلائه على تنس[8]، من أشهر تآليفه شرح كتاب تلقين المبتدأ وتذكرة المنتهي للقاضي عبد الوهاب المالكي في الفروع، كما برز في هذا المجال أبو زيد عبد الرحمن بن عتيق البلولي الذي كان متضلعا في علم الحديث، واهتم الإمام الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مرزوق الخطيب بالتصنيف فألف تعليقا على صحيح البخاري، أما أبو الفضل محمد أحمد بن مرزوق الحفيد فقد قام بشرح الجامع الصحيح للبخاري المسمى "المتجر الربيح والمسعى الرجيح والمرحب الفسيح والوجه الصحيح والخلق السميح"، وله كذلك أرجوزة الروضة في علم الحديث، وممن تفوق في علم الحديث محمد بن عبد الله التنسي الذي دعي بالحافظ وأبو عبد الله محمد المغيلي الذي صنف كتابا في علم الحديث سماه مفتاح النظر.

أما الفقه فإنه يبدو للباحث أن معظم فقهاء هذا العصر قد راج كلامهم على الفقه الخالص من فروع المذهب المالكي، وقد نتج عن اهتمام الزيانيين بعلماء الدين أن زاد عددهم وتكاثر، وظهر منهم أعلام في الفقه كانت لهم شهرتهم وسمعتهم في هذا العصر[9] أمثال أبو زيد عبد الرحمن بن

الإمام (ت 743هـ/ 1343م) الذي ألف كتابا ضمنه شرحا وافيا لمختصر أبي الحاجب في الفروع، وألف أبو عبد الله محمد ابن أحمد بن عمرو التميمي (ت745/ 1345م) كتابا سماه المدونة في الفروع كما ألف عبد الله محمد بن مرزوق الخطيب ما يزيد عن ستة وعشرين مصنفا في علوم الدين والفقه على وجه الخصوص منها: شرح كتاب المختصر لابن الحاجب"، وكتب محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت909/ 1503) عدة مصنفات في الفقه منها "مصباح الأرواح في أصول الفلاح" ومن هؤلاء كذلك محمد بن يوسف السنوسي (ت 895/ 1489م) الذي اكتسب شهرة علمية كبيرة لعلمه الغزير ومن مؤلفاته "العقيدة الكبرى" في عشرة أوراق وسماها "عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمات الجهل وربقة التقليد المرغمة أنف كل مبتدأ عنيد"، و"كتاب المقدمات" وبين في شرحه علم التوحيد ويظهر من هذا كله مدى اهتمام سلاطين بني زيان بالعلم والعلماء، فلولا هذا الاهتمام لما تطورت العلوم الدينية في دولة بني زيان، حيث أن ما تركه علماؤها وفقهاؤها من كتب وتصانيف تدل دلالة واضحة على هذا التطور.

2- العلوم العربية:

أما هذه العلوم فقد اتسعت دراستها، ونفقت سوقها، وراجت بضاعتها[10]، فقد ظهر في هذا العصر طائفة من اللغويين والنحاة من أعلامها المشهورين ابن مرزوق الحفيد، من مؤلفاته "المفاتيح القرطاسية في شرح الشقراطيسية". و"المفاتيح المرزوقية في استخراج الرموز الخزرجية" وفي العروض والقوافي، "أرجوزة في اختصار ألفية ابن مالك"، و"إيضاح المسالك على ألفية ابن مالك" انتهى فيه إلى اسم الإشارة والموصول[11].

وكتب محمد بن العباس التلمساني (ت 821هـ/ 1461م) كتابا في الصرف سماه "شرح لامية الأفعال". كما ظهر من النحاة محمد بن محمد بن العباس التلمساني (ت920هـ/ 1514م) الذي صنف مجموعا فيه فوائد ومرويات وأبحاث في النحو[12]، كما برز الشيخ بن عياد الكبير الراشدي (ت 964هـ/ 1518م) بالتعمق في دراسة العروض والبيان وكان من أبرز علماء النحو[13]، ومنهم كذلك الشيخ أحمد بن محمد بن محمد المعروف بابن الحاج، الذي كان بارعا في العلوم العربية والبيان[14].

فقد حظيت الدراسات اللغوية باهتمام كبير من قبل العلماء لارتباطها الوثيق بعلمي القرآن والحديث.

كما تصدرت علوم الأدب مجالات النشاط العقلي في دولة الزيانيين وكان الأدب نثرا وشعرا محط اهتمام واحترام كل الطبقات، ففي مجال الشعر برز العديد من الشعراء حتى الأمراء منهم، وكان لموقع تلمسان وطبيعتها الجميلة أثر عميق في تفجير مواهبهم وشحذ قرائحهم فظهر الشاعر أبو عبد الله التلاليسي الذي تحدث عن الصلح الذي وقع بين بني مرين وبني زيان في عهد أبي حمو موسى الثاني:

من الزاب وافانا عزيزا مظفرا يجر من النصر المنوط به ذيلا
بدت لمليك الغرب شدة بأسه وإنعامه للمعتفين وما أولى
فبادره بالصلح خوف فواته وسالمه إن كان ذاك به أولى[15]

ومن الشعراء الذين برزوا خلال هذا العهد كاتب سر أبو حمو موسى الثاني الخاص يحي بن خلدون ولد بتونس سنة 734هـ، وله قصائد كثيرة يمدح فيها السلطان أبا حمو موسى الثاني ومن بين هذه القصائد:

لله دولتك الكريمة أنها زين الحياة ومظهر الألطاف
مولاي خذها من نتائج فكرتي بكرا تزف إليك أي زفاف[16]

وفي وصف تلمسان وما تحتويه من أماكن جميلة قال شاعرها الأديب أبو عبد الله محمد بن الخميس.

تلمسان جادتك السحاب الروائح وأرست بواديك الرياح اللواقح
وسح على ساحات باب جيادها ملث يصافي تربها ويصافح[17]

وكان أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي الثغري من الشعراء الذين مدحوا أبا حمو موسى والإشارة بمكانته، وكذلك جمال تلمسان، فهو القائل:

سلطانها المولى أبو حمو الرضى ذوي المنصب السامي الرفيع المعتلى
تاهت تلمسان بدولته على كل البلاد بحسن منظرها الجلي[18]

أما في مجال النثر فقد اشتهر ابن البناء العددي (ت721هـ/ 1321م) الذي أكد على وحدة مفهوم الأدب ونوعيه إذ أن الشعر في نظره هو القول الموزون، وما تبقى فهو النثر. ومن مميزات النثر

خلال هذا العهد غلبة طابع النثر الأدبي نتيجة لتشجيع السلاطين والأمراء لرجال هذا الفن[19]، كما يجب أن نذكر كذلك أبا بكر بن خطاب الأندلسي (ت688هـ/ 1289م) الذي كان بارعا في فن الكتابة، وكذلك ابن مرزوق الخطيب، ومحمد بن هدية القرشي وأبو عبد الله الرقام الهسكوري، ومحمد بن علي العصامي[20]، ومحمد الصالح بن شقرون[21]

3- العلوم الإنسانية:

أما في العلوم الإنسانية، فإن علم التاريخ قد حظي بعناية كبيرة من قبل الزيانيين، فازدهرت كتابته ازدهارا يتناسب مع مقام بني زيان العلمي وطموحاتهم في المجال السياسي والحضاري والعسكري[22]، فازدهرت في عهدهم جماعة من المؤرخين دونوا مصنفات في تاريخ الدولة، كأبي زكرياء يحي بن خلدون صاحب كتاب "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد[23]، وكذلك أبو عبد الله محمد بن مرزوق (ت 681هـ) الذي ألف كتابا سماه "المسند الصحيح في مآثر مولانا أبي الحسن": كما نبغ في هذا المجال محمد بن عبد الله التنسي صاحب مؤلف "نظم الذر والعقيان في بيان شرف بني زيان"، كما كتب أبو عبد الله محمد ابن أحمد بن صعد الأنصاري(ت901هـ/ 1495م) كتابا سماه " النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب".

4- العلوم الرياضية والطبيعية:

كان لهذه العلوم دورها وأهميتها في العصر الزياني، فقد اشتهر الشيخ القاضي سعيد بن محمد العقباني التلمساني (811هـ/ 1418م) الذي شرح كتاب الحوفي في الفرائض واستخدم فيه الكسور الاعتيادية[24]، وشرح العالم ابن أحمد التلمساني الشهير بالحباك (ت867هـ/ 1463م) "تلخيص أعمال الحساب"[25]. كما نظم عبد الوهاب أحمد الونشريسي (ت955هـ/ 1549م) أرجوزة في "تلخيص أعمال الحساب" وأخذ منه ابن القاضي عدة أبيات أثناء جمع العدد الصحيح من شرحه لمنية الحساب[26]. أما الذين برزوا في دراسة الهندسة فنذكر أبو عبد الله الآبلي، وأبو عبد الله الشريف التلمساني ونظمه في هذا المجال العالم الرياضي ابن داود أحمد بن علي البلوي الأندلسي (ت938هـ/ 1532م) أرجوزته المشهورة التي علق عليها الشيخ أحمد بن محمد بن القاضي العافية

المكناسي (ت1025هـ/ 1616م) في شرحه الذي يحمل اسم "الرائض لطالبي فهم الناهض بأعباء علم الفرائض".

كما عرف العصر الزياني طائفة من خيرة علماء الفلك وصنفت فيه كتب دلت بها على معرفتها بشؤون هذا العلم وعن مهارتها بأصول هذا الفن[27] ومن الذين عنوا بهذا العلم محمد بن يوسف السنوسي الذي ألف كتابا سماه "عمدة ذوي الألباب ونزهة الحطاب في شرح بغية الطلاب في علم الإسطرلاب ربط فيه السنوسي بين علم الإسطرلاب والقيام بالواجبات الدينية كمعرفة أوقات الصلاة، كما ألف العالم القلصادي (ت 891/ 1583م) نحو ثلاثة عشر كتابا في الحساب وصنف في التنجيم شرحا على رجز أبي إسحاق بن فتوح.

وبعد هذا العرض للحياة الفكرية والثقافية بالجزائر في العهد الزياني لا يجد الباحث إلا أن يقول أن فترة الزيانيين كانت مزدهرة في جميع حقول المعرفة، وما الأسماء البارزة للأعلام الذين ذكرناهم في بحثنا إلا دليلا على تقدم العلوم خلال هذا العصر والتي أصبحت تضيء رحاب المغرب بنور المعرفة.

مراجع البحث وإحالاته

1- تأسست الدولة الزيانية عام 1236م على يد السلطان يغمراسن بن زيان الذي أعلن استقلالها عن الموحدين مستغلا ظروفهم السيئة خاصة منذ تولي الصبي أبو محمد عبد الواحد الرشيد بن المأمون الموحدي الحكم بمراكش سنة 630هـ/ 1232م.أنظر:ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج 13، مطبعة بولاق المصرية، بدون تاريخ، ص 185-186.

2- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، دراسة عمرانية سياسية، اجتماعية، ثقافية ج2، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، 2000، ص 319.

3- عبد الحميد حاجيات، تلمسان مركز الإشعاع الثقافي في المغرب الأوسط، مجلة الحضارة الإسلامية، عدد خاص بالمراكز الثقافية بالمغرب الإسلامي، وهران، 1993. ص 39.

4- عبد الفتاح مقلد الغنيمي، موسوعة المغرب العربي، المجلد الثالث، مكتبة مذبولي، 1994، القاهرة، ص 183.

5- عبد الحميد حاجيات، الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بن زيان، مجلة الأصالة، العدد 26، 1975. ص 137.

6- عبد العزيز الفيلالي، المرجع السابق، ج2، ص 377.

7- اهتم الزيانيون بعلم الحديث كغيرهم من المسلمين، فكانت تعقد لعلم الحديث مجالس عديدة بعد صلاة الصبح يحضرها الشيوخ والطلبة وعامة الناس.

8- عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، مجلة الأصالة. العدد 26، ص .139

9- عبد العزيز فيلالي. المرجع السابق، ج2، ص.448

10- عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، مجلة الأصالة. العدد 26، ص .149

11 –عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص .453

12- أبو عبد الله بن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، نشر عبد الرّحمان طالب، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1986، ص .259

13 – نفسه، ص 276

14- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص .454

15- محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973، ص 241.

16- ابن عمار الجزائري، نحلة اللبيب باختيار الرحلة إلى الحبيب، مطبعة فونتانة الجزائر، 1902، ص 163.

17- رشيد مصطفاوي، تلمسان في الأدب العربي، مجلة الأصالة، العدد 26، جويلية –أوت 1975، ص .353

18- يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، تحقيق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية الجزائر، 1980، ص 88

19- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص .456

20- يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج 2، ص .315

21- نفسه، ج2، ص .143

22- عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج2، ص .467

23- قام بتصنيف هذا الكتاب بطلب من السلطان أبي حمو موسى الثاني، بغرض تخليد أمجاد هذه الدولة.

24- ابن فرحون إبراهيم بن علي بن محمد، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، المجلد الأول، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة 1، 2003، ص.124

25- محمد المنوني، نشاط الدراسات الرياضية في مغرب العصر الوسيط (عصر بن مرين) مجلة المناهل، العدد 33، السنة 12، ديسمبر 1985، ص .87

26- نفسه ص .88

27- نفسه، ص88.